من رواية بقايا الموت للكاتبة الالمانية اولا لينتس (مساء الاربعاء الساعة الثامنة بمكتبة مصر العامة بالغردقة)

عادت أختي في المساء إلى أسرتها، وعليّ أن أبقى لدى أمي حتى موعد الجنازة، أو ربما لبعدها. ليس لدي ما ينتظرني، ويبدو أنها تعلمذلك جيداً . لن يشكو مني أحد، لن يفصلني أحد إذا لم أواصل رسالة الدكتوراةالتي أكتبها عن النفي عند هيغل وأدورنو وفي بوذية طائفة زِن. قطتي عند أرنت، والغرفة التي أنام فيها كانت في السابق غرفتي، أما الآن فلا يذكرني بها أي شيء فيها، لقد أصبحت غرفة للضيوف، يغطي جدرانها ورق حائط تقليدي بسيط، وبها أريكة للنوم وخزانة ملابس وتلفاز. وتحمل الريح الأمطار في طيّاتها، تلاحقها وتحتضنها، ثم تقذفني بها مرة أخرى. فتحت شيش النافذة فتحة بسيطة، ورحت أنظر عبرها إلى ظلام الليل الحالك، الذي لم أرى في حياتي كلها مثله في أي مكان على وجه الأرض.

أما في النهار فقد بدت الطبيعة – رغم تواضعها – مفعمة بالسرية والتحدي، فالأرض سهلة وممتدة، تخلو من الجاذبية التي تضفيها عليها التلال والوديان، أما ذلك الظلام اللامحدود، حيث يغيب كل شعاع ضوء أو وقْع لصوت، فيتحول المشهد إلى ما يشبهو ّامة شاسعة نتجت عن انزلاق أرضي صاحبته رياح عنيفة. السريرهنا مكتنز جدّا، ورحت أبحث عن وضع آمن يتحملني بضع ساعات. كنت راقداً على ظهري، فاستدرت لأنام على جنبي فوجدتني مرة أخرى على حافة السرير وذراعاي عالقان في الهواء خارجه.

الوسادة طريّة أكثر مما أحتاجه، السرير كلّهصغير جدّا علي، يأبى أن يعطيني الاستقرار الذي أحتاجه، ويغصبني في الوقت نفسه على البقاء في وضع واحد. وفي الليالي الماضية قررت أن أطلب من أمي أن تعطيني وسادة أخرى، ولكني كنت أنسى ذلك في الصباح. أضأت نور الأباجورة وفتحت الباب وأغلقته مرة أخرى بعد أن خرجت. كانت الطرقة مظلمة، لم يكسر ظلامها سوى بقعة ضوء صغيرة، سرت نحوها، إنه الضوء يتسلل من ثقب المفتاح في باب غرفة أمي، بقيت واقفاً خلف الباب، وانتابنيالتوتر فجأة، كنت سأقرع الباب لو كان أبيحياً .

إن المنطق أو الفكرة التي تستتر وراءه غامضة.استحضرت صورة الطفل الذي يهرع إلى سرير أمه إذا شعر بألم في حلقه، أو أحسّ بالعطش أو رأى كابوساً في الليل. دخلت دورة المياة، ووقعت عيناي على مزيل العرق ولوسيون الحلاقة الخاص به، وبدا جديداً، أو على أية حال مملوء عن آخره. انحنيت قليلاً، إنه عطر مميز، واحد من العطور القوية التي لا يتوقف انتشاره على الكمية المستخدمة. ماركة العطر، إنه لا

يتناسب مع شخصية أبي الخجولة المتواضعة، بل على العكس، كانت ستضايقه. وكنت قد لاحظت أثناء رحلتنا الأخيرة سوياً بالسيارة عبق هذا العطر ينبعثمن طيّات معطفه، وأصابني وقتئذ الصداع. أشار أبي إلى المسبح الذي تعلمت فيه السباحة لماكنت صغيراً، وأصبح الآن محاطاً بسور من حوله. "إنهم يريدون هدمه وبناء مسبح ملاهي بدلاً منه كما يحدث في كل مكان. وسوف ينتهي البناء على الصيف القادم."

فتحت النافذة أكثر وتخيلت (رأيت، وحضرتني)كيف كنّا سنلهو سوياً مع "لاورا" ابنة اختي هناك في العام القادم.

مرة أخرى واصلت السير في الطرقة باتجاه شعاع الضوء الخافت (المتواضع، الخجول، المتردد)، القادم من الغرفة، ولم تمر دقيقة حتى زالت ملامح (معالم) أمي من الخلفية.

قالت "أنت لا تنام. أنت مستيقظ."

وقفت ثانية كاملة ولست متأكدة إن كانت مستيقظة أم نائمة، بسبب نظرتها الجامدة ونبرة سؤالها المتكهنّة.ربما تمنيت أن لو تسير وهي نائمة، كدليل على أنها قد تغيّرت، وربما أنتظر أن تسأل عني وعن حالي، وكيف أعيش بعد موته، كيف أصبحت حياتي بدون أب. أريد أن أصارحها بكل ما في نفسي. أريد أن أقول لها أنالأمر سيتغير كليّا، أستطيع أن أقول هذا في تلكما اللحظة، ترى هل ستكون إجابتها:" لا بأس يا أريان، نحن نعلم جميعاً قدر حبك له وارتباطك به".

لقد قالت هذا بالفعل لـ"أرنت" في أول مرة حضر فيها إلينا. قالت له إن أريان مرتبطةجداً بأبيها. وكان رده "لماذا تقولين لي ذلك".

شدّتربطة البُرنُس وهي تقول: "الوقت تأخر، والساعة تجاوزتالواحدة منتصف الليل، أتريد حبّة مهدئ؟"

"لا، ولكن وسادة أصلب ستساعدني على النوم."

ذهبَت إلى غرفة أبي، لم أدخلها منذ أن مات، ووقفت هذه المرة أيضاً على الباب. رأيتُ حُباً تتدفق وتحلّق فوق جدرانها، قطاعات من السماء، نماذج لطائرات اتخذت مكانها فوق الأرفف. كان يخلو إلى نفسه هنا، وكان يبيت أيضاً هنا في السنوات الأخيرة بسبب نومه المضطرب. كنت أجلس على أريكته – التي تقلبها أمي الآن – بينما هو مشغول في أوراق الإقرار الضريبي والتأمينات وأوراق تسجيلي في الجامعة وفواتير الطبيب. لم يكن هناك الكثير لنتحدث عنه، كما هي العادة، كنت أجلس ولا أستطيع أن

أبرح مكاني، لم أنصت دائماً لما يقول، ولم يلاحظ هو ذلك، ولهذا كان يعيد ما قال، ولأنها عباراته كانت مكررة فلم أكن أنصت إليها.

انحنت أمي قليلاً لتبدّل غطاء الوسادة، إنها وسادته، سأرقد حتى بزوغ الشمس، حتى تربط الطيور حنجرتي بشرائطها الزرقاء الغامقة، تأسرني معها إلى النوم، ثم أستيقظ في النهار، الضوء يخترق بقوة فتحات شيش النافذة.

شغّلت هاتفي الجوال، فجائتني رسالة قصيرة من ليندر وأنا في طريقي إلى المطبخ، فعدت إلى غرفتي كي أقرأها في هدوء.

"شيء فظيع، أفكر فيك دائماً، سأعود الأسبوع المقبل إلى مكسيكو سيتي، وإن كنت لا أرغب في ذلك، لا ينتظرني في البيت سوى العمل. تحياتي. ليندر"

لكني أنتظر قدومك إلى هنا. أريد أن أكتب له، ولكني لا أريد أن أفزعه. لم يعرفني أبداً هكذا مسكينة وقليلة الحيلة، بل إن هذا ما تقوم عليه علاقتنا في الأساس، لكن هذا كان في الخريف.

فتحت باب المطبخ،الذي كان موصداً ، رفعت أمي رأسها من الصحيفة ونظرت إليّ وقالت: "للمرة الأولى أشعر بالجوع". نبرة صوتها تكشف عن فضولها، ربما لاحظت أيضاً ما تفعله بها الساعات والأيام، وأحست بالفجوة التي خلّفها فيها غيابه، إذ فقدت أولاً شهيتها لأيام، وها هي الآن تحس بالجوع.

رحت أفكر أنا أنظف الخسّ في حوض المطبخ أن كل شيء قد يتغير بالفعل، كانت أمي مشغولة بتقشير البطاطس، أحسست بها خلفي مثل إنسان مصمت يحاول أني يقتفي أثر أعماق نفسه، أحسست بوقفتها وهي تمسك بالمقشرة التي راحت تمشي بها على ثمار البطاطس ناسية تماماً أنها ترفض بشدة أن يساعدها أحد في المطبخ. أعلم ذلك منذ أن كنت طفلة، منذ أن كانت جدتي تأتي لزيارتنا، وتقف ملاصقة للأواني في المطبخ محاولة أن تضفي على الطعام لمسة منها ومن خبرتها، لقد تعلمت بعد شجار أدّى ذات يوم إلى طرد جدتي من المطبخ أنّ الطعام لا يكون إلا من أمي، وأن الثنائية الجدلية المكونة من النيّة والأزمة، تنهداتها خلف باب المطبخ في أيام الأعياد التي تعد فيها الوجبات الكاملة، بالإضافة إلى السيطرة على الوضع جزء من هذا الشجار الذي ينتهي بالنصر.

انتابني التوتر وأنا أقطّف أوراق الخس، كأنها كلفتني بمهمة لست أهلة لها. ركزت على كسر فروعها الهشّة، صوت انكسارها هادئ وبريء. لا أدري إن كانت الكمية التي قطّفتها كثيرة أم قليلة. نظرت إلى أمي، فطأطأت رأسها وفي يديها ثمرة بطاطس بدأت للتو تقشيرها. أزلت الأوراق الذابلة من على رف

تجفيف الأواني، وتبقّت بعض بقع ماء متسخة بين ثنايا لوح الحوض المعدني، فمسحتها بمنشفة ورقية. ولأدري إن كنت كسرتُ "السحر" عندما سألتها: "أين ألقي هذه المنشفة الآن؟"

لكنها ردت بنبرة تخلو من أي ضيق أو تعب: "هناك، في السلة هناك."بدت كالغريبة في مطبخها، أو كمن يجد صعوبة في التعامل مع المألوف بعد طول الغياب.

دفعت غطاء سلة القمامة بظهر يدي وألقيت فيها المنشفة، فظل يتأرجع للحظات.

"أين وعاء السلطة؟"

أشارت إلى خزانة الأواني فوق الموقد، ثموضعَ ت طاجن الخضار المجمد في الفرن، وقالت وهي تمد إلي يدها بقطعة من الشيكولاتة: "نصف ساعة من الآن".لا أعلم من أين أتت بالشيكولاتة فجأة، بدت كخدعة سحرية. ألقيت بقطعة الشيكولاتة في فمي كما فعلَت تضامناً وتواطئاً معها، وجائتني صدمة حلاوتها كهبّة حارقة اجتاحت جسدي بأكمله.

عشنا في الأيام الأخيرة على الأطعمة المجمدة و السريعة التحضير. تارة نطلب بيتزا بالهاتف، وقد نضع نصفها في الثلاجة لأننا لم تكن بنا شهية حقيقية، وتارة شوربة سريعة التحضير، لا نحتاج لإعدادها التفكير أو لعناء الوقوف في المطبخ. إن الفجوة التي خلفها موت أبي في المائدة فكرة لا بد من السيطرة عليها. أحكمت قبضتي على الشوكة والسكين، وركّزت على كل حركة كأني سأنزلق إن لم آخذ حذري.

سقط بثق الماء الأبيض على أوراق الخس الخضراء الفاتحة، فلم تتردد في قصفها برزاز الماء الذي انتشر على البلوفر الذي أرتديه. خفضت تيار الماء الصادر من الصنبور، ونظرت حولي لأستطلع إن كانت أمي قد رأت هذه الكارثةكلاّ ، لم ترها. رحتأمشّط بأصابعي أوراق الخس بحذر وعناية. و سألتني أمي بنبرة ودودة مشجّعة "ألا تصنعين صلصة السلطة؟". بحثت عن الخل والزيت على الرف، وقررت أن أستخدم من بين الأنواع والزجاجات الكثيرة زيت الشوك والنبيذ الأبيض. سمعتها تقول: "يكفي هذا". ولست متأكدة إن كانت تقصد الكمية أم تقليبي للسلطة.

كلماتها افتقرت إلى عنصر المكان، بدت كعبارات دروس تعلّم اللغة، بدون تحت أو فوق، ولا في الأمام أو في الخلف.وراحت حبّات البطاطس تتراقص مع غليان الماء، تقفز وتهبط داخل الوعاء. خفضت أمي نار الموقد.ونظرتُ من النافذة، ولاحظت هي نظراتي، وقالت شيئاً عن طيور الشحرور المتسلّطة التي تطرد الطيور الأخرى من الحديقة، وعن الحشائش التي نمت، وكان أبي يريد قصّها نهاية الأسبوع. تحدثت وكأنها تعتب أو تلوم عليه، أو يصاب الإنسان بخيبة الأمل حتى من الأموات.

"أستطيع أن أقص الحشائش."

"لكنك لم تفعلي ذلك من قبل."

"يمكنني أن أحاول."

ملّست بيدها على كيس الخبز بحذر، فرأت هالة من العفن الأبيض تلمع من خلف الكيس البلاستيكي الشفاف، فابتسمت وقالت: "كان يسألني دائماً إن كان لدينا خبز أسمر، بغض النظر عن الطعام الموجود."

ألقت أمي الكيس في سلة القمامة، ثم فتحت الثلاجة وأخرجت منها المربى الخالية من السكر، ووضعتها على الطاولة.

"أنا أحب المربى ذات السكر، كنا نشتري دائماً كل شيء مرتين، فكثيراً ما أكل قطع السكر خلسة."

بدت مشتتة وهي تخرج الزجاجات والعبوات المختلفة من الثلاجة، كأنها تخرج عينات للتجربة، وتتعرف عليها، أو على إمكانية تجربتها من الأساس يوماً ما ستهتم بأمر شمّ اعة الملابس الموجودة في مدخل المنزل، وبأحذيته ومعاطفه وقبعاته، يوماً ما سيأتي الدور على خزانة ملابسه. فكّرت ماذا أقول لها، هل أواسيها، لكن ليس هناك شيء. أمسكت باب الثلاجة المفتوح أمامها وتشبثت به، وكانت الثلاجة أعلى منها قليلا. بدت لي شجاعةولكني أعلم أن هذا الوصف غير كافٍ ولا منصف لها، بل إنه قليل، إن كل ما يمكن قوله لن يوفيها حقها.

أخرجَت السمن من الثلاجة، وتنهدت وبدت عليها علامات السأم، وتراكمت بقايا سمن تحت حواف غطاء العلبة البلاستكية، فمسَحتها من على يدها وهي شاردة الفكر. "يمكننا الآن أن نعد المائدة".

ذهبت إلى غرفة المعيشة، وأخذت المفرش من على المائدة، ووضعت عليها مفرشاً جديداً، فرشته على هذه الطاولة البيضاوية، إنها حركة تبث نوعاً من البهجة العجيبة في روحي. رأيت أبي يجلس على المائدة ويطالعني بنظراته، إنه لا يراني، ولكني أستطيع أن أراه. مسح وجهه بيده، مسح التوتّر والقلق الذي استولى على المشهد كأنه يمسح رذاذ الصلصة، ثم هبّ واقفاً.

كان ينهض عندما يعلو الصوت عند مدخل المقهى ويتسع نطاقه، أو عندما يقع في أسر المنصتين المستمعين، كان يلقي التوتر على قدميه اللتان بدءتا تدغدغانه مرة أخرى. عليه أن يتحرك قليلاً، يعتذر. كان يدخل غرفته أو يخرج إلى الحديقة، تضيء كنزته من خلف زجاج النافذة وهو واقف أمام الأشجار التي تصوب أفرعها تجاهه، بدى كسمكة في أعماق بحر من النباتات المائية، حفيف شجر الزان الحمراء،

شجرة الكرز اليابانيمتجو ّلاً في قبقابه الخشبي، معطيا ظهره للبيت، رافعاً نظره إلى السماء بين الحين والآخر، متحسساً الطقس، مستنشقاً الهواء. أحياناً كان يقف برهة أمام إحدىالنباتات، شارداً، متفكّراً، ولكن التوتر كان يجتاح نفسه اجتياحاً، أو على الأقل كان يبدو هكذا لي. كنت أشعر بإنهاكه السريع وخوفه المتزايد في الكبر من أن يلتزم بشيء أو يُفرض عليه شيء، حتى ولو فرضه على نفسه. لم يفهم ماذا دفعه للسفر بالحافلة إلى روما، وذهبت عنه هذه الرغبة في اليوم التالي، ولكن بعد أن كان حجز الرحلة بالفعل. كان بإمكانه بكل سهولة أنيحر ّك برنامجاً يوميا، أو رحلة سياحية معينة في جدول مواعيده.

سألتني أمي سؤالاً مباشراً : "هل سمعت شيئاً عن بيتريس مؤخراً؟"

"لا، لم تتصل بي."

"ما الذي أصابها وجعلها تتخلى عنك؟ هل تتعاطى المخدرات؟"

أجبتها بقولي: "لا أدريلكن كلمة أم ّي حز ّت في نفسي وآلمتني، تخلّت عني، لقد تخلت عني لما كنت في الثانية عشرة من العمر، على حسب فهمي على الأقل أو تصوري المطلق لما أعتبره "أعز صديقة"، كما اعتبرت نفسي بالنسبة لها، بينما لم تكن هي على استعداد للمنافسة مع كثيرين آخرين ممن أرادوا نيل صداقتي، في هذه اللحظة اعتبرت صداقتنا أمراً منتهياً .

"كانت في الماضي جميلة وأنيقة."

قلت: "أل ّها كانت تختار لها الملابس"، وفتحت الخزانة وأنا أستدرك: "أي أوانٍ أحضر؟"

"المنقّطة. ولكن كيف تبدو هي الآن؟"

"إن لها نمطها الخاص بها."

"ولكن هل ترينها جميلة على شكلها هذاألا يمكنها أن تجم ّل نفسها قليلاً؟ ملابسها المستهلكة وشعرها الملبّد."

في رأيها أن ما تفعله يناسبها جداً ."

"هل ستحضر الدفن؟"

"لم نتكلم عن هذا."

عمّ تحدثتما إذاً؟"

أردت أن أقول لها أننا تحدثنا قليلاً، حديثاً لمجرد الحديث، ولاحظت توتري عندما أردت أن أثبت لها ابتعادي عن بيتريس، وفي الوقت نفسه أن أحمي بيتريس من أن تتخذ أمي موقفاً سريعاً منها. وشعرت أمي بتعثر الكلمات في حلقي.

إذاً لا تقولي شيئاً، هذا لا يخصني."

استدارت أمي واستندت بيديها على البوفيه، ورحت أنظر لظهرها برهة وأخيراً وضعت يدي على كتفها، ووقفنا حتى مرّت سيارة في الخارج، ثم سحبت كتفها من تحت يدي، ورحنا سوياً ننظر إلى خارج النافذة، فرأينا متعهد الدفن، رجل مسن، يسير مترنّحاً في مدخل الجراج. انتظرنا حتى يدق جرس الباب، وكنت أنا أنتظر أن تعطيني أمي الإشارة.

"إنه يريد بالتأكيد تسليم أوراق العزاء."

"سأفتح له الباب."

بدا متعهد الدفن كالشخصيات المألوفة في الأفلام، رجل نحيف القامة، يرتدي بدلة سوداء، شعره الأبيض نثرته الرياح. أعطاني ظرفاً بنياً وقال: "أوراق العزاء والتقرير الطبي، التقرير يذكر فقط الحالة الظاهرية للجثة، أما نتائج تشريح الجثة فستصدر بعد ستة أسابيع."

طأطأت رأسي في تحية رسمية، وسحبت غلاف ورق بلاستيكي شفاف به صورة يسوع مدبّسة مع الوثيقة الرسمية، كأنها صورة جواز سفر. لو كانت أختي هنا لطلبت من متعهد الدفن الدخول، يبدو أنها لا تعرف شيئاً عن هذا التقرير، لو كانت تعلم لكانت هنا الآن.

قرأت أسفل الغلاف البلاستيكي عبارة باللغة الهولندية، كثيراً ما سافرنا إلى بحر الشمال في هولندا لقضاء الإجازة. لم يتوف أبي هناك، لكني استحضرت الآن صورة حبوب الشيكولاتة على الخبز الأبيض المدهون بالزبد، ورحلات الدراجات في المراعي وغابات الصنوبر، إلى طبيعة الكثبان ذات الرمال المضيئة الناعمة التي ترسمها الرياح، أفكر بالنوارس التي تحلق فوق البحر مثل الملايات البيضاء.

لم يشأ أبدا أن يذهب إلى هولندا، كان عليه أن يسجّل نفسه كلما أراد أن يعبر الحدود، لهذا نعلم أنه ضل الطريق، نعلم أنه فقد الاتجاه. شكرت نفسي، ضغطت أصابعي بقوة على الغلاف البلاستيكي حتى تصاعد النبض في أناملي كأنها قلبٍ استطعت أن أحييه من جديد.

دخلت الغرفة التي كانت غرفتي يوماً من الأيام، ووضعت التقرير في حقيبتي.

تجاوزت الساعة الثانية عشرة بعد منتصف الليل، مصباح الأباجورة يرمي دائرة ضوء صفراء على الحائط، والصمت يسود المنزل، والرياح توقفت بالخارج، وليست هناك أمطار. ألقيت أوراق العزاء التي أعطاها لي متعهد الدفن عالياً في الهواء، وتركتها تهبط على وجهي، تنفست وهيعلى وجهي، فاهتزّت برشاقة وخفة مع كل نفس آخذه، دفء أنفاسي يغطي كل وجهي، لا أتخيل أن العالم سينتهي هنا، مع وجهي ومع الورق الذي يمثّل السماء الأخيرة، لا أتصورأن هذا كل شيء، والآن أصبح جلد وجهي كالأرض كوّن عليها الورق خيمة سماوية، تفصلهما بضع مليمترات من الهواء، بعض الحياة، جرعة بسيطة من الحياة. هكذا قد تسير الأمور. الضوء يخترق جفني، وعندما فتحت عيني رأيت ثانية كلمات التقرير الطبي تعلو وجهي، شعرت بجلدي يتمزّق، ألم شديد، فارتعدت ووقع بنفسي خاطراً بعيداً، رأيت الأسقف جوزيف، الأسقف اليسوعي من بورما ومعلّم "الزِن"كم أودّ أن أتصل به الآن، لو كان لديه هاتفاً جوالاً، لكنه على أية حال سيظل صامتاً كما هي عادته كمعلّم للزن، أو كان سيقول بنبرة خافتة قولته المعهودة: "فعلاً؟" أو بصوت هامس: "حسناً ". لم أسمع عنه شيئاً في الأشهر الستة الماضية، ولكنه قد يقول هذه المرة: "آسف جداً على الفقيد"، أو: "سوف أصلي من أجل أبيك"، صوف نصمت، وربما ننصت إلى صمت الطبيعة في جبال بالاني الهندية، أو أشجار القهوة المثمرة في المزارع ويد الأسقف تمسح عليها مثلما شاهدته من قبل من فوق سطح الدير، يداعب بإحدى يديه ثمار القهوة، وكيف يفكّر في بيت شعر للشاعر الياباني ماتسو باشو يناسب الوضع، ولكنه لا يقوله لأن ماتسو باشو لن يقول شيئاً لامرأة اتصلت به لأن أباها سيقبر بلا وجه أو أجفان.

ألا يزال الأسقف حياً والآخرون موجودون والجبال في أماكنها؟ ولم يمضِ على رحيلي من هناك سوى أسبوعين؟ وغير الأوراق التي تعلو وجهي، ألا تزال هناك الصالة ذات الأرضية الخشبية الداكنة المورنشة، التي يجلس المرء عليها في الخامسة صباحاً ثم ينهض ويسير بضع خطوات كل ثلاثين دقيقة مع دقات الساعة؟ ألا يزال هناك تمثال بوذا البورمي الذهبي بجانب الصليب، التمثال اللامع الذي لا يناسب أثاث مركز الجماعة. تمثال بوذا، بالطبع إنه بوذا، ولكن من بلد غريب، مثله مثلنا بالكاد. ألا تزال مكتبة الأسقف موجودة بأرففها الخشبية العالية، التي قرأت فيها كتباً لأرسطو وكوزانوس وهيديغر وباشو؟ وكنت أجلس هناك كل يوم عصراً وظننت أن باستطاعتي أن أحكي لنفسي شيئاً عن الخلود.نحّيت الورق من على وجهي واتصلت بأرنت كي يؤكد لي أن كل ذلك لا يزال موجوداً، أو ليقرأ لي شيئاً التقرير الذي أحضرته معي من هناك. أريد أن أقول له أن يقرأ لي شيئاً منه، الفقرة الأولى التي يظهر فيها الأسقف أني لا أستطيع أن أرد على حِكمه وأقواله المأثوره، ليس لأني لا أعرف الإجابات، ولكن لأن طريقي إليها في

اللغة مستحيل. وبدلاًمأن يقر الأسقف بأني صرت متنو ّرةً بالفعل، يقول: "لكن ليست هناك مشكلة". انتهت المكالمة.

سألت بصوت هامس حتى لا تستيقظ أمي: "هل تسمعني؟"

قال أرنت بصوت خافت: "أجل، أسمعك"

"هل أيقظتك من النوم؟"

الساعة الآن الثانية صباحاً "

"أنا آسفة"

صمتنا، كما كان الأسقف سيصمت معي، كلا ّ ، الصمت مع الأسقف مختلف، أريد أن أحكي لأبي ما أعرفه الآن لكن هذا سيبدو الآن كما لو أني أشير على شخص عارٍ ، شخص ليس لديه ما يحميه، لا يستطيع أن يقول شيئاً أو يعلق على شيء. أنزلت ذراعي والورق في يدي، وأغمضت عيني وسمعت أحداً يهمهم، إنها همهماتي. سمعت قططاً تصرخ من الألم. أهذا ما أفعله؟ بدأت أقول: يّبدو لي أحياناَ أني لا أدرك من الحقيقة سوى القليلأتخيل مخبراً سرياً يقتفي أثر أختي، فكرة رخيصة ولا تهدف إلا لمنعي من الانهيار. ولكنها تجبرني على تلك التصرفات، في الحقيقة كنت أتوقع شيئاً آخر تماماً . لقد تخيلت أننا سنتفاهم جميعاً إذا مات أحد أبوينا. على فكرة، لم يكن هناك حريق، لا بد أن هناك سبب آخر للوفاة، كما أن التقرير لا يذكر شيئاً عن حروقكان علي ّ أن أدرك ذلك من قبل، لن أخبر أختي بهذا التقرير، ولماذا أخبرها، إنها لا تهتم، ولتتحمل نتيجة موقفها."

صمت أرنت، أمر عجيب، كنت أفترس أذنيه حديثاً عندما أتصل به ليلاً فأفيقه من النوم. لكن العالم القديم عاد مرة أخرى بلا عناء مع صمتنالم ّا كانت علاقتنا قائمة، عندما كان كل منا يمشي عشرة دقائق حتى بيت الآخر ببساطة، كن ّا نشغّل سماعة الهاتف الخارجية، ونحمله معنا أينما ذهبنا في المنزل عندما نغسل أو نشاهد فيلماً في التلفاز، كلانا يحمل الهاتف ذي اللمبة الحمراء للسماعة الخارجية معه في كل مكان، نتكلم تارة، ونصمت تارة أخرى عدة دقائق متواصلة، فتظل اللمبة الحمراء مضاءة مع صمتنا، ولكن كل منا كان موجوداً ، كأننا نعيش سوياً ، ويستطيع كل مناَ أن يطرد الآخر في أي وقت. لا أعلم كيف يبدو الحال بعد انتهاء علاقتنا.

"الشمس تشرق الآن في جبال بالاني." قلتها وأنا أرى الشمس الحمراء تصعد من وراء الجبل وتزيل الضباب اللامع في الحديقة تحت نافذتي، ثمار القرع، والخس، والأعشاب ونباتات أخرى لا أعرفها.

وخطر ببالي ذالكالحلم مرة أخرى، رأيته في الليلة الأولى، وفكر ّت أنه سطحي جداً بالنسبة لكونه حلم، فهو غير معقدو لا يحتاج إلى تفسير، لقد فشل عقلي الباطن، وعجز عن ترجمة الحلم إلى لغة الرموز.

وقفت أمام الباب الزجاجي المؤدي إلى الحديقة، ووقف أبي – الذي مات البارحة – إلى جانبي. شكا إلي ّ بلهجة المحتاج للحديث وبطريقة طفولية الفجوة بين الأشجار، المكان الذي أزالوا منه شجرة التنوب العملاقة في غيابي، لقد اختفى ما يعوق النظر إليهم منذ أن قطعوها. الضوء يسقط على وجهه، صمتنا، ثم قال فجأة:انظري يا أريان، لقد ركّبوا لي جسداً جديداً، جسدي القديم تلف تماماً، لكن الطب اليوم قادر على عمل أي شي، انظري، كلها قطع غيار، لكنها تبدو حقيقية، أليس كذلك؟"

ويريد مني أن أنظر إليه. نظرت إليه ولكني لست راضية عن الطريقة التي يكلمني بهاإنه بعيد جداً عني، كأنه يريد أن يقنعني بعكس الحقيقة. قلت له: "لكنك ميت."

حكيت لأرنت من قبل عن هذا الحلم، والآن أحكيه له مرة ثانية، أريد أن يقول لي مرة أخرى: ربما لم يكن هذا حلماً، ربما زارك أبوك فعلاً . ساعتها سأقول: لكني لا أصدق في هذه الأشياء. ربما آمنت من قبل بهذه الأمور، في الماضي، قبل أسبوع فقط، لما كان غير مهم، ولكني لا أستطيع الآن أن أؤمن بحدوثهلأنه أصبح مهماً .

أرنت لا يزال صامتاً، قلت: "أنت ميت. ما رأيك بهذه العبارة؟ أقصد هل يمكن لإنسان أن يقولها لآخر؟"

"لقد تعرفت على امرأة أخرى يا أريان، أنا آسف جداً أن أخبرك بذلك في هذه الظروف، ولكنها هنا الآن ولن أستطيع أن أتحدث معك بحرية."

أنهيت المكالمة.

أسمع ضحكة أبي الذي يحكي لي شيئاً وهو يضحك، ولكني لا أفهمه. أشعر باليأس وهذا ما يوقظني. لا يزال صوتخداخل جسدي وأنا أعلم أنه سيزول إذا حر ّكت ُ إصبعاً. لا يزال الضوء الذي يخترق الستائر قوياً منذ أن نمت وقت العصر.

هناك ر َق من ملابس ملقاة على الأرض، جرجرت قطعة من القماش معي إلى الردهة. تشعر بدوار. نظرت إلى جهاز استقبال المكالمات، هل ترك أبي رسالة على الهاتف اختفت بين ضحكاتهفتحد ّث مرة أخرى على سبيل الاحتياط، لكن الجهاز مطفأ. ثمتذكرت مرة أخرى، أنه مات.

توفى أبي قبل خمسة أسابيع، سقطت به الطائرة في ظروف غامضة. كان طيار هاو. حدث ذلك في شهر يونيو مساء، وأنا في الثالثة والثلاثين من عمري،ضوء الشمس والفرص، كلا ّ ، ما هو الآن. ما هو الآن. لوح الثلج العملاق في البراد، يدفع الطعام إلى حافة الرف الأمامية منذ أسابيع. كيس جزر وأنبوبة مايونيز وأنبوبة دهان كورتيزون لعلاج الطفح الجلدي من الصيف الماضي. مسحت بسبابتي على الثلج الشفاف الذي برز من حائط البراد كالورم، ينمو كل يوم ويبدو أنني غيرقادرة على فعل شيء تجاهه، لأن البراد قد خرب فعلياً وعلى شراءبراد ٍ جديد.

قش ّرت جزرة في حوض المطبخ وقضمتها. رفعت القطة عينيها ونظرت إلي ّ بفضول. قرفصت لأدعها تشمشم، فراحت ترفع أظافرها بخفة وتضربها ثم تحك ّ بجسدها بيدي، تحسست يدي ومرفقي؛ لمست كل جزء مكشوف في جسدي بعمد، بدأت في البكاء ولم أنقطع إلا عندما رن جرس الهاتف.

"مرحباً ، أنا التي أتكلم."

"أهلاً سفنيا، كيف الحال؟"

"هل أنت مريضة؟ صوتك غريب."

"كَلا" قلتها وسكت ّ ، لم أرد أن أخبرها أنني كنت أبكي، ولا أني كنت نائمة، بينما تجلس فيه في مكتبها وترسم تصاميم لمعامل.

"أحاول الاتصال بك منذ البارحة. من فضلك افتحي جهاز استقبال المكالمات."

"لقد أطفأته القطة.

ضحكت سفنيا ضحكة خفيفة، بالرغم من أني لم أقصد الفكاهة، فقطتي تضغط عادة على زر القفل والفتح عندما تقفز إلى المنضدة الصغيرة. هذا ما يحدث.

قلت وأنا أنظر من النافذة: "بالكاد ما يتصل بي أحد هنا على أية حال"، رأيت عبر النافذة سروالين

داخليين متدليين من المزراب، منذ الخريف الماضي. واحد أحمر قاتم والآخر زهري، تعلوهما طبقة رمادية، كلاهما ثابت، عالق هناك. أحببت النظر إليهما.

"اسمعي، إن تقرير الطب الشرعي جاهز. الشرطي الهولندي يريد رجل مقابلتنا بخصوصه، يوم الثلاثاء، الساعة الثالثة عصراً. سوف أمر عليك في الثانية والنصف لنذهب سوياً، اتفقنا؟"

"اتفقنا."

"وسوف تأتي وحدك من فضلك، اتفقنا، هذا أمر خاص بعائلتنا."

" أرنت تعرّف على امرأة أخرى."

"حقاً؟"

"أجل."

انتظرت أن تسألني أختي عن التفاصيل ولكنها لم تفعل. وخطر ببالي أنني لا أعرف أية تفاصيل، وأني أردت ذات ليلة قبل خمسة أسابيع أن أحكي شيئاً لأرنت، ولكنني لم أستطع، لأنه أخبرني بأمر تلك المرأة فما كان مني إلا أن أنهيت المكالمة.

"هل تعرفين ما الذي حكاه أبي في آخر لقاء بيننا، في هذا التوقيت؟"

"لا، ولكن رجاء حاولي أن تختصري أو احكي في مناسبة أخرى. يجب أن أحضر لاورا من درس البيانو."

"لقد حكى لي عن الحادث الذي مر به قبل أربعين عاماً. بالطبع تتذكرين الحادث بالسيارة الفورد الزرقاء. حكى لي كيف اندفع جسده وخرج من الزجاج الأمامي للسيارة، والخاطرة التي أتته في هذه اللحظة أن هذه هي النهاية، فصار يضحك. هبط في حقل خاوٍ. وظل يضحك حتى لاحظ أنه لم يمت. قد يكون هذا ما حدث هذه المرة. مع الفرق أنه في هذه المرة قد مات بالفعل."

بدت كأنها تفكر.

"أعرف هذه القصة. حكاها أكثر من مرة."

"حقاً؟ بغض النظر. لكن أن يحكي هذه الحكاية بالذات آخر مرة!"

"حسناً، إن كان هذا يساعدك بأي شكل من الأشكال..."

"ليس الموضوع إن كان شيء يساعدني أم لا، ولكن..."

"آري، لا أستطيع أن أخوض الآن في التفاصيل، كوني لطيفة ودعينا نتحدث مع الشرطي يوم الثلاثاء. وحاولي مقاومة الرغبة في طرح الأسئلة التي تجول بخاطرك. لا تسألي عن كبيرة وصغيرة واعي وجود أُمنا. وحاولي عدم تحويل الموضوع إلى برنامج رعب.

أنهيت المكالمة. وتبددت أختي تختفي بلمسة من الإبهام. يبدو أنها أصبحت عادة.لقد اختفوا جميعاً . أتنفس وأشعر أنني بخير، بشكل لم أشعر به منذ وقت طويل.رنّ جرس الهاتف مرة أخرى، جريت إلى الردهة لأفتح جهاز استقبال المكالمات. سمعتصوتي أولاً ثم صوت سفينيا وهي تلقي الكلام بشكل موضوعي: "إذا نلتقي يوم الثلاثاء في الثانية والنصف. سوف أرن جرس الباب لتنزلي. اعتن بنفسك. سلام."

مسحت الرسالة قبل أن تنتهي الصوت؛ فإن فاتت هذه اللحظة سيكون علي المرور على كل الرسائل القديمة لكي أتمكن من مسح هذه الرسالة. هناك سبعة رسائل مسجلة على الجهاز، اثنتان منهما من أبي. بعد موته سمعت صوته مرة يقول *"هنا"* فقمت بالضغط على زر الخبر التالي: هنا*بوك* ، هكذا كان يبدأ مكالماته دائماً . *هنا*. ولكنه لم يعد هنا. فهو لم يعد "هنا" سوي على هذا الجهاز، ولا أعرف ماذا أصنع بهذه الـ"*هنا*" .